وفود الأمة بين يدي نبيها

صلى الله عليه وسلم

عفا الله عن المؤرخين والمشتغلين بالتاريخ ، إنهم لا يفارقهم الشعور التاريخى والتفكير التاريخى فى أقدس مكان وأفضل زمان ، إنهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ويصلون الحاضر بالماضى .

كنت أمس فى الروضة فى المسجد النبوى ، وحولى جمع حاشد من المصلين والمتعبدين بعضهم فى ركوع وبعضهم فى سجود ، ولتلاوة القرآن دوى كدوى النحل ، كل ذلك كان جديرا بأن يشغلنى عن التفكير فى التاريخ وفى رجال الماضى ولكن سحابة غشيتنى من الذكريات القديمة لم استطع لها دفعاً ولم املك لها قهراً .

رأيت كأن عظماء هذه الأمة عاشوا من جديد ، وجاؤوا وفودا يصلون فى هذا المسجد العظيم ويسلمون على هذا النبى الكريم ، ويقومون بواجب الإجلال والتكريم ، والامتنان والاعتراف بالجميل ، يشهدون له على اختلاف طبقاتهم ، بأنه هو الذى أخرجهم بإذن الله من الظلمات الى النور ، ومن الشقاء الى السعادة ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ويشهدون على أنفسهم بأنهم غرس الاسلام وزرع النبوة ، وأنهم – لا سمح الله – لو تجردوا مما أكرمهم الله به عن طريق هذا النبى ومما أتحفتهم به نبوته ، لعادوا أجساداً بلا روح ، وخطأ بلا وضوح ، ولعادوا الى عهد الظلمات وشريعة الغابات وقانون العصابات ، وانطمست معالم هذه الحضارة .

حانت منى التفاتة فرأيت فريقا يدخل من باب جبريل وهو أقرب الأبواب إلىّ – عليهم السكينة والوقار ، يعلوهم نور العلم وسيما التفكير ، وقد ملأوا الرحاب بين باب جبريل باليسار الى باب الرحمة باليمين ، منعت كثرتهم عن العد والتشخيص سألت البواب عنهم ، فقال هؤلاء اعلام الأمة وأئمة العلم وعباقرة الانسانية ونوابغ الوجود ، كل واحد منهم امام أمة ومؤسس مكتبة ، ومبتكر علم ومربى جيل ، قد خلدت أثارهم فامتدت على العصور والافاق ، وسارت فى ضوء علومهم واجتهادهم

وتحقيقهم الأجيال بعد الأجيال ، وقد سمى منهم على عجل واحتشام ، مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النعمان ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وأبا عبد الله احمد بن حنبل ، وليث بن سعد المصرى ، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى ، ومحمد بن إسماعيل البخارى ، ومسلم بن حجاج القشيرى ، ومحمد ابن محمد الغزالى ، وتقى الدين بن تيمية ، وموفق الدين بن قدامة ، وأبا إسحاق الشاطبى ، وكمال بن الهمام ، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، على تفاوتهم فى الزمان والمكان ، وأصالة العلم وعلو الشأن .

رأيتهم بدأوا بتحية المسجد وصلوا ركعتين فى خشوع وقنوت ، ثم تقدموا الى القبر الشريف فى أدب وتواضع ، وسلموا على نبيهم ﷺ فى كلمات وجيزة المبانى ، كثيرة المعانى ، عميقة الجذور ، سامقة الذرى وكأنى اسمعهم يقولون وفى عيونهم دموع وفى صوتهم خشوع : « **لولا ان الله بعثك يا رسول الله ، ولولا شريعتك السمحة الواسعة الخالدة مع الزمان ، ولولا أصولها المفتقة للقرائح ، ووضعها الحكيم المعجز والباعث على التفكير والتفريع ، ولولا حاجة الانسان اليها فى كل زمان ومكان ، لما دون هنا هذا الفقه العظيم ، وهذا التشريع الحكيم الذى لا تحمله أمة من الأمم ومجتمع من المجتمعات البشرية ، ولما نشأت هذه المكتبة الدينية التى تتضاءل أمامها كل مكتبات العالم الدينية ، ولولا جهادك فى سبيل نشر العلم والحث على استعمال العقل والتدبر فى آيات الله لما عاش العلم وانتشر هذا الانتشار الواسع ، ولما أطلق العقل الإنسانى من إسارة وسار العالم فى آصارة** » .

ولم أكن قد قضيت لبانتى من هذه الجماعة حتى لفت نظرى فريق آخر يدخل من باب الرحمة ، عليهم سيما الصلاح والعبادة ، وفى وجوههم أثر التقشف والزهادة ، قيل لى : ان فيهم الحسن البصرى ، وعمر بن عبد العزيز ، وسفيان الثورى ، والجنيد البغدادى ، والفضيل بن عياض ، وداود الطائى ، وابن السماك ، وعبد القادر الجيلانى ، ونظام الدين البدايونى ، وعبد الوهاب المتقى ، وأضرابهم ، اقتدوا بالأولين ، وتقدموا بعد الصلاة ، ووقفوا أمام المدفن الشريف ، يصلون على نبيهم وإمامهم وقدوتهم ، ويقولون : « **لولا المثل العملى الذى هداك الله**

إليه فى حياتك ، ولولا منارك الذى أقمته لمن يأتى بعدك يا رسول الله ، ولولا قولك : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » ووصيتك « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ولولا حياتك التى وصفتها لنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، « وطلوع هلال بعد هلال ومرور شهر بعد شهر لا توقد فى بيتك نار ولا تنصب لها قدر » لما كان لنا أن نؤثر الآخرة على الدنيا ، وأن نكتفى ببلغة من العيش وكفاف من الزاد ، ولما كان لنا أن نتمرد على الشهوات ونقاوم إغراء الأموال والمناصب والحكومات ، فى غير تحريم لما أحل الله من الطيبات ، ومن غير تحقير لما من الله علينا من النعيم ، ووسع لنا فى الحياة ، ولكنه إيمان المؤمن وإيثار للآخرة ونعيمها على الحياة الدنيا وطيباتها ، وعزوف عن الشهوات ، وكراهة للتكالب على حطام الدنيا » .

ولم أستوف كلماتهم الحكيمة المر قة حتى لفت نظري فريق يدخل من باب النساء في حشمة وتستر ، بعيد عن كل ما ينافي الإسلام وآدابه من الزينة الظاهرة والتبرج ، وتقدم هذا الفريق من المسلمات الصالحات ، وشرقيات وغربيات ، وتكلمن في صوت خافت ، وأدب ظاهر : « نصلي ونسلم عليك يا رسول الله ! تسليم من عظمت عليه منتك ، فقد أنقذتنا بإذن الله وحوله من تقاليد الجاهلية وظلم المجتمع ، وجور الرجال ، وحرمت وأد البنات ، وحذرت من عقوق الأمهات ، وقلت : (الجنة تحت أقدام الأمهاتِ) وأشر كتنا في الإرث وبينت نصيبنا أما وأختا وبنتا وزوجا ، ولم تنسنا في خطبتك العظيمة يوم عرفة ، فقلت : (فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتمو هن بأمان الله) إلى غير ذلك مما حثثت به الرجال على الإنصاف للنساء وأداء حقوقهن وحسن عشرتهن ، جزاك الله عن جنسنا أفضل ما يجزي الأنبياء والمرسلين وعباد الله المحسنين » .

ولم ينقطع عن أذنى هذا الصوت الرخيم حتى سمعت حسيس قوم يدخلون من باب السلام ، والتفت اليهم فإذا هم مبتكرون للعلوم ومدونون للفنون ، أئمة النحو واللغة والبلاغة ، فيهم أبو الأسود الدؤلى ، والخليل بن احمد وسيبويه ، والكسائى ، وأبو على الفارسى ، وعبد القاهر الجرجانى ، والسكاكى ، وابن منظور ، ومجد الدين الفيروز أبادى ، وسيد مرتضى الزبيدى ، يريدون ان يبلغوا تحية علومهم ويدفعوا

ضريبة ما عشوا عليه واشتهروا به ، وسمت مكانتهم بفضله ، وسمعتهم يقولون فى بلاغة وأدب : لولا ان الله اكرمنا بك يا رسول الله ولولا الكتاب الذى نزل عليك ، ولولا حديثك الذى نطقت به ، ولولا هذه الشريعة التى دانت بها الأمم ، واحتاجت لأجلها الى تعلم اللغة العربية والتفقه فيها ، لما نشأت هذه العلوم التى كتب لنا شرف الزعامة فيها ، ولما كان نحو ولا بيان ولا بلاغة ، ولما ألفت هذه المعاجم الكبيرة ودقق فى مفردات اللغة العربية ، ولما جاهدنا فى سبيلها هذا الجهاد الطويل ، ولما خضع العجم وهم فى سعة من لغاتهم ، وغبطة بلهجاتهم لدراسة اللغة العربية والتعمق فيها ، ولما كان منهم هؤلاء الاعلام الذين أقر بفضلهم ونبوغهم أدباء العرب وجهابذة الأدب ، فأنت الرابطة يا رسول الله ! بيننا وبين هذه العلوم الناشئة فى الاسلام ، النابتة فى عهد رسالتك وإمامتك ، وأنت الرابطة بين العرب والعجم . وأنت الذى ملأ الله بك هذا الفراغ ، ووصل البعيد بالقريب ، والعجمى بالعربى ، فكم لك من فضل على نبوغنا وعبقريتنا ، وكم لك من فضل على ثروة العلم ونتاج العقول ومحصول الأقلام .

ولولا ان الله أرسلك رحمة للعالمين لطويت اللغة العربية فيما طوى من اللغات واندرس من اللهجات ، ولولا القرآن العظيم العربى المبين لتناولها المسخ والتحريف كما تناول اللغات الكثيرة ، وابتلعتها العجمة واللهجات المحلية وقضى عليها اللحن ، ولكنه هو وجودك وشريعتك الخالدة ودينك العالمى وكتاب الله المعجز الذى منعها من العفاء والدروس ، وفرض سلطانها وسيطرتها على العالم الاسلامى كله ، وغرس حبها وإجلالها فى قلب كل مسلم ، فأنت الذى خلد الله بك هذه اللغة وضمن بقاءها وانتشارها وسلامتها ، فلك على كل من ينطق بها أو يكتب فيها أو يعيش بها أو ينادى اليها فضل لا يجحد .

ولم أنتبه من مقالتهم حتى استرعى انتباهى قوم يدخلون من باب عبد العزيز ، خليط من البشر ، ومزيج من الأمم ، فيهم أعظم سلاطين العالم وأعظم ملوك عرفهم التاريخ ، فيهم الوليد بن عبد الملك ، وهارون الرشيد ، ومحمود الغزنوى ، وملك شاه السلجوقى ، وصلاح الدين الأيوبى ، والظاهر بيبرس ، وسليمان القانونى العثمانى ، واورنك زيت عالمكير التيمورى الهندى ، وقد نحوا الخدم ورجال

الشرطة عنهم وتركوهم وراء الباب ، يتقدمون فى هيبة وتواضع غضيضة أبصارهم ، خافتة اصواتهم ، واستعرضت أسماءهم وأدوارهم والدنيا الواسعة التى كانوا يحكمونها والسيطرة العظيمة التى كانوا يتمتعون بها ، فمنهم من كان يحكم دولة لا تقطع فى أقل من خمسة أشهر على اسرع جمل ، ومنهم من قال مرة لسحابة مرت به : « أمطرى حيث شئت . . فسيأتينى خراجك » ومنهم من اتسعت مملكته حتى استطاع ان يأمر بأن يدفع الى اصحاب سفن جيحون أقصى الشرق أجرتهم من مالية أنطاكية فى أقصى غرب المملكة ، وحضر رسول القيصر ليدفع اليه الخراج فما تسلم منه إلا على باب كاشغر ومنهم من كان يرهب فى أوربا ، وتمتنع الكنائس من ضرب الأجراس ، اذا دخل المسلمون فى بلادهم احتراماً لدينهم واشفاقاً من سلطانهم ، ومنهم ومنهم ومنهم .

رأيتهم يتقدمون ليصلوا فى مسجد الرسول ، ويسلموا على صاحبيه ، يعتبرون ذلك أعظم سعادة لهم وأكبر شرف ويتمنون لو رفعت هذه الصلاة ولو قبل هذا التسليم ويسمح لهم بالوقوف فى مصلاه ، والوقوف امام مرقد الرسول يقومون بواجب الإجلال والتكريم ، والاعتراف بالجميل ، رأيتهم يتقدمون الى الأمام تقصر خطاهم ، وتتعثر أقدامهم ، والمهابة تملأ قلوبهم حتى وصلوا الى الروضة النبوية وصلوا فيها تحية المسجد ، ثم تقدموا الى القبر الشريف فسلموا على نبيهم كما شاء حبهم وإجلالهم وكما شاء علمهم وإيمانهم ، متأدبين بآداب الشرع ، متقيدين بشريعة التوحيد ، وسمعتهم يقولون : « لولا ان الله أكرمنا بك يا رسول الله ! ولولا جهادك ودعوتك التى وسعت الآفاق وفتحت البلاد ، ولولا دينك الذى آمن به آباؤنا فخرجوا به من حياة الخمول والهوان والعزلة عن العالمالى حياة الشرف والطموح والمغامرة ، فأسسوا دولا واسعة وفتحوا بلاداً شاسعة ، وجبوا الخراج من الأمم التى كانت تسوقهم بالعصا وترعاهم كالغنم ، فلولا هذا الانتقال من الجاهلية الى الاسلام ومن الانطواء على النفس والحياة القبلية الضيقة الى غزو العالم وفتح الأمم لما ارتفعت لنا راية ، ولا رويت لنا رواية ، ولبقينا فى صحارينا القاحلة وفى أوديتنا الضيقة المظلمة ، نتصارع ونتناحر ، يأكل القوى منا الضعيف ويظلم الكبير منا الصغير ، طعامنا أفقر طعام وعيشنا أخس عيش ،

لا نفكر فى مكان أوسع من هذه القرية الصغيرة التى نعيش فيها ولا فى مكان أوسع من البشر اكبر من هذه القبيلة الصغيرة التى نرتبط بها ، أسماك بركة وضفادع بئر ، نعيش فى عالم من نفوسنا وتجاربنا المحدودة ونغنى بمجد آبائنا الجهلاء السفهاء ، ولكنك يا رسول الله ! ألقيت علينا ضوءاً من دينك تفتحت به عيوننا ، وتوسع به خيالنا ، فخرجنا الى ارض الله الواسعة نحمل دينة الواسع ، ورابطته الجامعة ، وأشعلنا مواهبنا الخامدة الجامدة ، نحارب الشرك والوثنية ، والجهالة والظلم ، فأسسنا هذه الدول العظيمة ونعمنا ونعم أولادنا وإخواننا فى ظلها قروناً ، وها نحن أولاء ، نقدم إليك تحياتنا ونقدم إليك ضريبة الاجلال والتكريم والحب والتعظيم ، وهى ضريبة نقدمها طوعاً واختياراً ونتشرف بتقديمها ونعترف بتقصيرنا فى جنب دينك الذى اسعدنا الله به وتطبيق أحكامه وتنفيذ قانونه ، ونستغفر الله تعالى ، إنه هو الغفور الرحيم » .

وقد كنت مصروفاً الى هؤلاء الملوك ، أرى وجوههم الخاشعة وأسمع كلامهم الرقيق ، الذى لم أسمعه أبداً منهم ، إذ تقدم فريق آخر مشى فى صفوف الملوك من غير اكتراث واهتمام ، لا يخشى لهم سطوة ولا يراعى لهم حرمة ، فقلت شاعر أو ثائر ، فإذا هو مجموع من الفريقين ، فيهم السيد جمال الدين الأفغانى ، والأمير سعيد حليم ، والزعيم محمد على الهندى ، والشهيد حسن البنا ، والشاعر التركى محمد عاكف ، والشاعر محمد اقبال وقدموا الأخير ترجماناً لهم يقول : « أشكو الى الله الذى بعثك بالحق من قوم لا يزالون يعيشون فى رفدك ، ويأكلون من فتات مائدتك ، وينعمون بالحرية والشرف فى بلاد أنت حررتها من حكومة الظالمين وأخرجتها الى ضوء الشمس ، إنهم يحاولون ان ينقضوا الأساس الذى قامت عليه هذه الأمة العظيمة ، وهذا الصرح العظيم ، ويريدون أن يوزعوا أمتك الواحدة فى قوميات وعصبيات كثيرة ، ويحيوا ما أمته ويبنوا ما هدمته ، ويرجعوا بهذه الأمة الى الجاهلية التى أخرجتها منها للأبد ، ويقلدوا فى ذلك أوربا التائهة الحائرة المفلسة ، ويبدلوا نعمة الله كفرا ويحلوا قومهم دار البوار ، إن الصراع بين مصباحك المنير وشرارة أبى لهب قد عاد من جديد ، وقد انضم الى معسكر ابى لهب كثير من الناطقين بلغتك . وعادوا يتغنون بأمجادهم الجاهلية والأصنام التى

حطمتها ، إنهم المطففون الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، نالوا منك كل بر عاشوا به ، وكل قوة اعتزوا بها ، ثم إنهم يأخذون بنواصى شعوبهم التى يحكمونها ويريدون أن يلقوها فى أحضان أوروبا وفلسفاتها الجاهلية من قومية واشتراكية وشيوعية .

ها هى الأوثان التى أخرجتها من جوف الكعبة تعود أو تعاد الى الشعوب المسلمة السليمة البريئة بأسماء جديدة وبثياب جديدة . إنى أرى فى بعض أجزاء العالم العربى الذى يجب أن يكون معسكرك ثورة لا فاروق لها ، وردة لا أبا بكر لها . منى ومن جميع أصحابى الذين أتشرف بتمثيلهم والتعبير عما فى ضمائرهم إليك أفضل التحيات وأشرف التسليمات ، وأوكد لك وأشهد الله على ما أقول أننا براء من الزعماء والعظماء الذين ولوا وجوههم شطر الغرب وانصرفوا عن قبلة الاسلام وشطره ، والذين لا صلة لهم بك ولا شأن لهم بدينك ، إننا ندين لك بالولاء والوفاء وسنظل متمسكين بحبل الاسلام حتى يأتى وعد الله ونلقى ربنا .

ولم تنته هذه الكلمة المؤمنة البليغة حتى ارتفع صوت المؤذن عالياً على منابر مسجد الرسول ﷺ الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، وأفقت من غفوتى وما كنت أسبح فيه من عالم الخيال والتاريخ ، وإذا بى أمام الواقع رجال فى الصلاة ، ورجال فى تلاوة القرآن ، وجموع من المسلمين ووفود من العالم الإسلامى ، تسلم على الرسول ﷺ ، وخليط من الأصوات والانطباعات والعواطف .

من أحاديث عالم الهند
الشيخ أبو الحسن الندوى